إنقاذ من؟

ويأتى بنا الحديث - وهذا ضروري- إلى جبهة الانقاذ لتصبح شهادتى صعبة وشائكة ولكن لا بأس فالحقيقة - من وجهة نظرى على الأقل - يجب أن تكتب يوما ما.

ويمكننى أن أقول ان الاجتماع الأول للجبهة قبل أن تتسع ساحتها لمساحات أخرى من السياسيين والشباب والنساء.. قد جاء كأمر واقع فالتجمع والوفد والديمقراطى الاجتماعى والمصريين الأحرار كانوا يتشاورون معا فيما يجب أن نفعل معا.. وعندما أصدر محمد مرسى تعديلاته الدستورية التى حسمت تردد الكثيرين جلسنا معا.. وبدأت الدائرة فى الاتساع عمرو موسي، البرادعي، سامح عاشور، منى ذوالفقار، شاهنده مقلد ولابد أن اسما أو اسمين قد سقطا من الذاكرة، ومع توالى الاجتماعات توالى

اتساع دائرة الحضور. وكانت مشاركة حمدين الصباحى منذ البداية مثارا لدهشتى فهو الذى تحالف علنا تحالفا ممتدا مع الجماعة الإرهابية وأوفد خمسة من رجال حزب الكرامة المنتمى إلى شخصه إلى قوائم الإسلام هو الحل، واسماؤهم معلومة ومنها مسيحى ترشح هو أيضا تحت راية الإسلام هو الحل، ثم تناثر حضور آخرين بعضهم حضر صامتا وظل صامتا وبعضهم قليل الأثر وقليل التأثير ومن ثم كان قليل الحيلة. ونعود إلى البدايات. فمنذ البداية تبدت منافسة واضحة جدا ومهذبة جدا بين عمرو موسى والبرادعي. كل منهما يريد أن يكون رقم واحد فى الجبهة ربما ليكون رقم واحد فى مستقبل الاحداث، والمثير للدهشة انهما لم يختلفا كثيرا فى مواقفهما الأساسية فعندما تأزمت الأمور وتعالت المعارضات وتصاعدت حدة الشعارات تحددت مواقف كل منهما. وأقول بوضوح آمل ألا يغضب أى منهما. عمرو موسى كان يقول بحسمه المعهود وصوته المميز وقبضته تصاحب كلماته لتزيدها حسما ليؤكد أكثر من مرة "نحن معارضون ولسنا مناكفون" هذه العبارة رددها عشرات المرات فترسخت فى ذاكرتي، ومن ثم تمضى الكلمات الحاسمة نريد إصلاح ما يجرى وليس تخطى الشرعية ولا مجال لرفع شعار إسقاط مرسى فهو رئيس منتخب". ولم يكن البرادعى مختلفا كثيرا فى موقفه، فكان هو أيضا يرفض رفع شعار اسقاط حكم الإخوان، وإنما يرى أن نمارس ضغطا منظما ضده ليصحح مواقفه. وبطبيعة الحال كان يختلف فى بعض المواقف عن عمرو موسى لكن الخلاف كان

دبلوماسيا رفيع المستوي، فإذا اختلفا أدلى كل منهما برأيه دون أن يوجهه للآخر وحتى دون إن ينظر إليه وإنما إلى السقف أو إلى الجالسين فى غير اتجاه الآخر، كما كان رد فعل كل منهما مختلفا، فعمرو موسى عندما يحتدم خلافه مع أحد الجالسين أو حتى غالبيتهم، ينسحب من الاجتماع دون أن نعرف هل خرج ليتحدث تلفونيا أو لشأن آخر ويعود، لكنه لا يعود وإنما يخرج متعمدا أن تتلقفه عشرات الكاميرات الفضائية التى كانت تلاحق اجتماعاتنا فيكون أول من يتكلم وأول من يدلى برأيه هو، فالاجتماع يكون لم يزل لم ينضج شيئا. ومع توالى الاجتماعات توالى ذات الأمر.

أما البرادعى فكان أيضا وبأسلوب آخر يرفض شعار اسقاط حكم الاخوان، ليقول بهدوء لا نريد أن نفقد تأييد القوى العالمية لتحركنا فهم يتمسكون بشرعية مرسي. وفى منحنى الجلسة وعندما نتوقف لفترة راحة كان ينتحى بى ولست ادرى لماذا كان يستعين بى ولست ادرى ايضا إذا كان يفعلها مع آخرين أم لا، وكان يهمس "ماكين كلمنى امس وهو غير راض عن شعار اسقاط حكم شرعى ورئيس منتخب" ولم أزل اذكر أن عبارة ماكين اتصل بى أمس" تكررت مع همسات البرادعى وفى أحد الاجتماعات (وأظن كان ذلك عند الهجوم الاخوانى الوحشى على المعتصمين امام قصر الاتحادية) تصاعدت حدة رفع "شعار الاسقاط" وكان سيد البدوى متحمسا لذلك على غير عادته وتقرر تكليف سامح عاشور بصياغة بيان وترك سامح الاجتماع هو وعدد من الحاضرين لصياغة البيان

وبعدها يحضر ليعرض مشروع البيان على الاجتماع الذى توقف لحين اعداد الصياغة. كان عمرو موسى قد تسحب كعادته، وكان البرادعى متوترا جدا ثم فجأة اتجه إلى قائلا "روح شوف بيعملوا ايه واذا كان فى الصياغة اى اشارة إلى الاسقاط ابلغهم اننى مستقيل من الجبهة. (وسألته لماذا يطلب منى أنا وهناك آخرون، فقال (وهذا صحيح) انت الذى تتكلم بصراحة وتعارض بوضوح أى مختلف معك، والآخرون لا يريدون اغضاب أحد فيكتفون بالصمت. واكتشفت أن هذا صحيح، وأنه يتكرر دوما). وذهبت إلى حيث تعمل لجنة الصياغة، وكان مشروع البيان قد أنجز تقريبا وكانت به عبارة "اسقاط النظام المستبد" وتحدثت مع سامح عاشور حول كيفية معالجة تهديد البرادعى الذى كان يتبدى جديا. واتفقنا انه ليس من المصلحة تمزيق الجبهة فى هذا الوقت الصعب، وامسكت بالنص واقترحت بدلا من "اسقاط النظام المستبد" عبارة أخرى تستخدم ذات الكلمات لكنها تحمل معنى مختلفا تماما وهى "اسقاط استبداد النظام" ووافق سامح متفهما صعوبة انسحاب البرداعى فى هذا الوقت. أما لجنة الصياغة فيبدو أنها لم تلتفت للفارق. وعدت للبرادعى الذى وافق وسألنى فى دهشة "جبت الشطارة دى منين؟" وفى الجلسات الاخيرة كان الصراع مريرا بين عمرو موسى والبرادعى حول موقع "منسق الجبهة" وكان هناك غضب هامس بين قيادات الجبهة (لم يعبر الكثيرون عنه علنا كالمعتاد لكى لا يتواجهوا مع عمرو موسى بسبب انسحاباته المفاجئة واستباقه

للحديث إلى الفضائيات المتجمعة قبل الجميع وحتى قبل أى اتفاق) وكان البرادعى يلح وتتوزع همساته على آذان عدد من رؤساء الاحزاب "ماكين يلح على ضرورة اختيار شخص واحد يجرى الاتصال معه باسم الجبهة، والفرصة ستضيع إذا لم تنتخبونى منسقا" وأنا لم أكن لا معجبا بالتداخل الامريكي، ولا بالاتصالات المتوالية وشبه اليومية التى يقول البرادعى أن ماكين يجريها معه. ولكن يبدو أن البعض سال لعابه طمعا فى مساندة امريكية لازاحة مرسى لأن ذلك سيحسم الامر. وعلى اية حال انتهز بعض قادة الجبهة (فالمشاورات الجانبية كانت تجرى معهم وبينهم فقط) فرصة خروج عمرو موسى ليلحق بكاميرات الفضائيات واختير البرادعى منسقا دون معارضة أحد ودون تصويت. والمثير للدهشة أن الكثيرين ومنهم البرادعى وموسى كانوا مغمضى الأعين عن ترتيبات أمريكية أخرى لاختيار أحد السلفيين رئيسا وهو ما سأتحدث عنه لاحقا.

ونأتى إلى حمدين الصباحى الذى كان يأتى دوما متأخرا ودوما مبتسما ابتسامته المصطنعة ودوما يحشر نفسه ليكون فى صدر المجلس. وكثيرا ما كان الاجتماع ينتهى دون أن ينطق مكتفيا بما يقول محمد سامى رئيس حزب الكرامة. وذات يوم وبعد أن تشكلت لجنة الخمسين لإعداد الدستور (والتى أدت بالطبع إلى غياب عمرو موسي) وطبعا بعد ازاحة حكم الإخوان وأصبح حمدين قادرا على التنفس حضر حمدين مبكرا وجلس كالمعتاد فى

صدر المجلس وطلب الكلمة (وكنت رئيس الاجتماع) ثم طرح فكرته وتتلخص فى أن جبهة الانقاذ تضم ١٥ عضوا من بين الخمسين الذين يشكلون لجنة الدستور، وتحدث عن أهمية التنسيق بينهم (وهذا اقتراح جيد) ثم فجأة قال "وعليهم أن يتمسكوا بتمرير المادة فى دستور مرسى والتى دسها حزب النور والمتعلقة بكيفية تفسير الشريعة وكيفية إعمالها عند وضع القوانين" وقاطعته معترضا وقائلا "هذه المادة بالذات هى اسوأ مادة فى اسوأ دستور اسقطه الشعب مع اسقاط حكم الاخوان" فقال محاولا ترويعى "أصل فيه ناس هنا بتهاجم الإخوان دوما إلى درجة أن الناس فى الشارع بتتصور أننا فى الجبهة ككل ضد الاسلام" فأجبته اجابة صادمة وقاسية لكنه استمر قائلا ما افزع الحاضرين وإن كان قد اسال لعاب البعض "نحن لا نريد أن نتصادم مع حزب النور صاحب هذه المادة فقد نحتاج للتحالف معه فى الانتخابات القادمة" وهنا انفجرت منى ذوالفقار معترضه بصوت حاد وغاضب، فحاول حمدين اخافتها بما يوحى انها لا علاقة لها بالواقع وقال " احنا بنتكلم عن "رأى الناس فى الشارع" فثارت منى وهى اكثر غضبا "شارع ايه يا شوارعي" وانفتح بركان الرفض وتحدثت أنا عن تحالفاته مع الإخوان وحضوره اجتماع "فيرمونت" مع الإخوان ثم حضوره المؤتمر الصحفى لمرشد الإخوان ومرسى أمام مقر الإخوان بالمقطم ومرشحيه فى قوائم "الإسلام هو الحل" وتحالف نوابه الدائم مع الإخوان فى برلمانهم" وصمت حمدين وتسلل بعدها من

الاجتماع وخيل إلى أن حمدين قد اكتفى بتسجيل هذا الموقف لعله يستفيد منه فيما بعد.

والمثير للدهشة أن حمدين وجماعته يمتلكون قدرا كبيرا وربما غير مفهوم من تحدى المصلحة العامة والرأى العام والتصور أن الشعب بلا ذاكرة ..فرغم كل ما كان من اخطاء وخطايا اعلنت صحف ١٢ يوليو ٢٠١٦ سفر حمدين إلى بيروت لحضور مؤتمر للتضامن مع حزب الله (الإرهابي). وتجلى ذلك ايضا فى مواقف سابقة لكثيرين منهم وعلى سبيل المثال كمال ابو عيطة الذى غرق حتى اذنيه - ربما بايعاز من حمدين- فى التحالف مع الجماعة الارهابية وترشح على قائمتها الانتخابية التى حملته مجللا بالعار إلى البرلمان الاخوانى ليمارس التحالف المكشوف معهم.. ومع ذلك امتلك شجاعة أن يستخدم حفل تأبين المناضلة التجمعية شاهنده ليهاجم التجمع ناسيا أن التجمع كان الذى واجه مرسى وحكمه وحكومته فى اصعب فترات الصراع السياسى والتى مثلت لحظات فارقة فى تاريخ الوطن تحسب فيها المواقف ويحاسب اطرافها كل وفق موقفه بينما كان هو منغمسا فى التحالف مع اطراف البرلمان الإخواني.

والحقيقة أن اخرين من اطراف الجبهة كانوا قد ارتكبوا ذات الخطيئة لكنهم لم يمتلكوا ذات القدرة على تجاسر مماثل. وهكذا فحتى الخطيئة أنواع بعضها يتخفى وبعضها يتبجح. ولكى لا يتصور أحد أننى اختص حمدين ورجاله، فإننى اسجل على د. سيد

البدوى انه ايضا مد يده للاخوان.. وحتى بعد الاتفاق بحضور المشير (وبعد ٣٢ اجتماعا استمر كل منها عديدا من الساعات) على تشكيل لجنة تختار لجنة متوازنة لوضع الدستور. واتفق على ٥٠٪ ليبراليين و ٥٠٪ اسلاميين وقد اعلنت من البداية عدم ثقتى فى تنفيد ذلك ورفضت حضور المؤتمر الصحفي.. تحالف د. سيد البدوى مع حزب النور ليعمل على احداث خلل فى النسبة فاعتبر (بناء على طلبهم) أن حزب الوسط حزب ليبرالى فاختلت النسبة لتصبح ٤٩٪ مقابل ٥١٪ ورفضنا وانسحبنا وبالنسبة المختلة وضع دستور مختل وغير مقبول ويمكن أن احسب لسيد البدوى انه انسحب سريعا من هذه المناورة ونفذ بجلده وجلد حزب الوفد من وهذه تحالف مرير المذاق مع حزب النور الذى لا يؤمن جانبه بينما تورط فى الأمر وإلى نهايته الحزب الديمقراطى الاجتماعى ليتقبل منحه مسمومه تتمثل فى رئاسة إحدى لجان مجلس الشورى كانت ثمنا لتحالف استمر إلى أمد مع حزب النور.

وهكذا يمكننى آن اقول وباطمئنان أن جبهة الانقاذ لم تكن مجرد أداة لانقاذ مصر من حكم الجماعة الارهابية وأداة لحشد جماهيرى معنوى ومادى ضد حكمها وانما كانت ايضا بالنسبة للبعض حماما يتوضأون فيه من خطايا تحالفاتهم مختلفة الدرجات مع الجماعة الإرهابية لكن هذا الحمام لم يمنع من أن تكون جبهة الانقاذ عاملا فاعلا وذكيا ضمن عوامل أخرى فى انقاذ مصر.

لكن الحديث عن جبهة الانقاذ لم يزل يحتاج إلى وقفة تستحق التأمل.

فجبهة الانقاذ استمرت فى الاداء الفاعل حتى بعد تولى المجلس العسكرى السلطة وتشكيل لجنة الخمسين لوضع الدستور وفض اعتصام رابعة ومواجهة تداعياته الارهابية. وطبعا ذهب البرداعى إلى القصر الرئاسى ثم غادره وغادر مصر. وذهب عمرو موسى رئيسا للجنة الدستور ولم يعد حضوره لاجتماعات الجبهة ممكنا وتباعد حضور أحد اقطاب الجبهة هو د. عبد الجليل مصطفى حتى انقطع. فلم يتواصل حضوره ولم ينقطع نهائيا وظلت لجبهة الانقاذ اربعة اعمدة التجمع - الوفد - المصريين الاحرار - الديمقراطى الاجتماعى وتعززت الاجتماعات باتفاقنا على فتح اجتماعات الجبهة لشباب يمثلون هذه القوى اساسا وقليلين من خارجها.. وبالتدريج تزايد حضور الشباب ولوحظت لقاءات منفصلة تجمعهم وحدهم وارتفع صوتهم فى الاجتماعات ولم يجد أحد منا أية رغبة فى كبت مواقفهم وانفعالاتهم.. وتواصل ذلك مع عدة اجتماعات حضرها د. أحمد البرعى الذى اصبح وزيرا ثم نائبا لرئيس الوزراء فى حكومة د. حازم الببلاوى الذى كان شكليا محسوبا على الحزب الديمقراطى الاجتماعى وإن كنت اشك أنه قد ظل كذلك لا هو ولا الدكتور البرعي. وفجأة وفى اجتماع للجبهة حضر الدكتور البرعى مبكرا وكذلك مجموعة الشباب التى لوحظ تزايد عددها (فقد اصبح الحضور غير محدد) وتحدث واحد منهم كان ينتسب (ولو

شكليا) للمصريين الاحرار ليعلن "قرارا" من الشباب بأنهم اختاروا الدكتور احمد البرعى منسقا عاما لجبهة الانقاذ. فوجئ الجميع ولكننى لم افاجأ فقد علمت به تفصيلا قبل بداية الاجتماع بخمس دقائق من ممثل التجمع فى مجموعة الشباب الذى قال انه فوجئ بأن الشباب ذهبوا دون أن يبلغوه إلى مقر وزارة الشئون حيث اجتمعوا مع د. البرعى (وسط مزاعم بأنه اغراهم بوظائف ذات مرتبات عالية) ولأن سيد البدوى واحمد سعيد حضرا ونحن على حافة بدء الاجتماع فقد تهيأ الجميع للبدء وكنت أراوغ انتظارا لحضورهما وفور حضورهما اعلن البرعى وسط دهشة الجميع بدء الاجتماع وامتطى الكلمة دون استئذان ممثل شباب المصريين الاحرار (ولم يكن ممثلا رسميا فقد كان هناك ممثل آخر اصبح فيما بعد وحتى الآن المتحدث الرسمى للحزب) ليعلن هذا القرار وسط دهشة الجميع، ولاحظت حيرة البدوى واحمد سعيد ولاحظت معها أنهما يشعران بحرج خاصة وأن البرعى أبدى موافقة مصحوبة بحماس شديد. مررت ورقة إلى احمد سعيد وكان بيننا البرعى الذى تصدر المائدة مبكرا وقبل حضور الجميع وقلت فيها "لك ولسيد البدوى هذا غير ممكن، فكيف سنواجه الناس بجبهة يرأسها احد اركان الحكومة، وكان ردهما انهما فى شدة الحرج يرون القبول ضارا بوضعية الجبهة ويرون ان البرعى مصمم ولا يريدون التصادم معه واعطيانى الحق فى أن اتحدث كما أشاء رافضا، وبدأت بأن هاجمت الشباب وقلت أننا احضرناهم للاجتماعات لنمنحهم فرصة التعرف على الاوضاع

العامة ولتعلم اسلوب العمل القيادي، وأنهم تجاوزوا حدود ما هو مسموح به لهم، فليس لهم عقد اجتماعات منفصلة، وليس لهم الحق فى اصدار قرار باختيار قيادة الجبهة ثم وجهت حديثى إلى الدكتور البرعى فى ظل صمت مرتبك من الشباب ووجه ممتقع من الدكتور البرعى الذى كان ولم يزل صديقا عزيزا وشخصية محترمة، وسألته "يا دكتور ألا ترى أى تناقض بين وضعك فى الحكومة وتوليك موقع المنسق العام للجبهة" فأجاب بكلمة لم أزل اذكرها "مفيش مشكلة" وسألته "وماذا لو اتخذت الجبهة قرارا بنقد الحكومة أو رافض لتصرف من تصرفاتها؟" وأجاب "مفيش مشكلة".

وخشية من أن تظل "مفيش مشكلة" محلقة فى سماء الاجتماع قلت فى حدة أنا اعتقد أن الأمر غير مقبول وغير ممكن واقترح الانتقال إلى جدول الاعمال. وصمت الجميع، البعض راضيا والبعض مندهشا والبعض مرغما.. وانتقلنا لجدول الاعمال.

وقبل أن اغادر ساحة جبهة الانقاذ أود أشير إلى أنها كانت فى المجمل فعلا صائبا ومفيدا جدا وكانت منذ بداياتها مصدر إلهام للجماهير التى كانت مترددة وغير مصدقة ان بالإمكان ازاحة كابوس مكتب الارشاد. وكانت بذاتها وببياناتها اداة تحريك لجماهير واسعة، ودعمت فوق ذلك فكرة وامكانية توحيد القوى الوطنية والديمقراطية بتموجاتها المختلفة فى ساحة نضالية واحدة، وكانت بالنسبة لى جهدا مهما ومصدرا لتعلم كيف تتماوج المواقف السياسية لتماوجات التركيب الاجتماعى والسياسي، وكانت

مصدرا ايضا لتكوين صداقات ومودة مع عديد الاشخاص مثل أحمد سعيد - منى ذوالفقار - اسامة الغزالى حزب- سامح عاشور - عصام شيحا- ود. ابو الغار وعديد غيرهم لم تزل مودتهم باقية وملهمة.